معايير النظرية النصية في كتاب المثل السائر لأبي الفتح ضياء الدين ابن الأثير

د/ نعيمة سعدية
جامعة بسكرة

الملخص :

تحاول هذه الدراسة الحفر في البنية المعرفية العربية القديمة بفروعها المختلفة قصد الوقوف على الأطر والإسهامات المشتركة بين علوم العربية، ولسانيات النص، التي تقوم على دراسة اللغة، كأداة لممارسة التواصل، من خلال كتاب المثل السائر لابن الأثير،باعتباره كتابا يتناول صناعة الكلام شعرا ونثرا، وكون لسانيات النص بمباحثها، وأهم هذه المباحث النصية أو ما سمي –عند البعض– نظرية النص الأنموذج، كونه العلم الذي يسعى لمقاربة النص كمنجز بأشكاله المختلفة، ولعل في ذلك تقاربا.

فما هي النظرية النصية؟ وكيف تجلت في مدونة المثل السائر؟ وما هي حدود التقارب بين النظرتين؟

Abstract :

This study is an attempt to dig into the epistemological structure of classical Arabic and its various branches so as to explore the intersections between Arabic studies and text linguistics. The main objective of this study is to study language as a means of communication in Ibn al-Athir's*Mathl al-Sair*. This is because the latter deals with the poetic and prosaic crafts of language, and also because one of the core subjects of text linguistics is the theory of Textuallyas it is the discipline that attempts to approach the different patterns of the text as a product, which in turn could be considered as a point of convergence. Hence, this study aims to answer the following questions: What is the theory of Texture ?How does Ibn Al Athir's*Mathl al-Sair* manifest the aforementioned theory? To whatextent do the twotheories converge?

أولا. النظرية النصية ومعاييرها في الدرس اللساني المعاصر:

النظرية هي "نسق من المعرفة المعممة"[1]، إنها مجموع الافتراضات المنسجمة القابلة للتقصي، فالافتراض والانسجام والتقصي مفاهيم أساسية تحدد بعد النظرية؛ انسجام المبادئ مع النتائج، وطريقة الوصول إليها ضرورة كل نظرية مهما كانت، ولعل ما تسمى النصية(textualité)، واحدة من بين هذه النظريات اللسانية المعاصرة.

وكون النص نسيجا لغويا محبكا، تجمع بينه العديد من العلاقات حتى يحدث من خلاله الفهم والإفهام، ليهتم نموذج التحليل اللغوي للنص بالحوادث المباشرة في إنتاج النص وفهمه، مع بيان كيفية تقديم المعارف التفاعلية للناس في أبنية نصية، فهو لا يصف كيف تسير "اللعبة"، بل ماذا في "اللعبة" "[2].

وعليه، أفرزت جهود الباحثين لتعريف النص، في النهاية ما سمي نصا مثالا يحوي معايير محددة، وجودها حتمية علمية لاكتمال أنموذجيته، حققت لسانيات النص به نظرية واسعة النطاق، يقيمها الباحث اللغوي مقترحا بها منظومة من المفاهيم المترتبة، التي تتشكل من مجموعة من الأحكام ذات الطـــابع الإلزامـــي وتشتغل وفق آليات منطقية؛ فمفهوم النصية يقوم عند مفكري لسانيات النص على أساس مفهوم النص بمختلف جوانبه؛ إذ يرى «هارتمان»(Hartman) أن النص هو الموضوع الرئيس في التحليل والوصف اللغوي، وأن تحليل النصوص ما هو إلا تحليل يتجاوز النظام إلى كيفيات الاستخدام، وتفسير النصوص عنده يقوم على عناصر داخلية وأخرى خارجية (خارج النص)؛ إنه البحث عما يجعل من النص نصا (بحث المعايير النصية) [3]؛ لأن كل نص يتميز ببنية خاصة . ثم نقوم برصد حركاته وتفكيك رموزه وعلاقاته الداخلية والرؤية التي يطرحها.

أما «إريك انكفيست» (N.E .Enkvist)، فقد أشار إلى النصية في معرض حديثه عن" البناء النصي السليم"، الذي اعتبره وظيفة تتكون من ثلاثة أنواع من العناصر الرئيسة:

أولا: إنه يعتمد على البناء النحوي السليم للنص، وما عدا ذلك نص غير سليم البناء.

ثانيا: إنه يعتمد على النمط الذي تنسج به الجمل، و تربط ببعضها، حتى تؤلف النص.

ثالثا: وكما أشرنا آنفا إنه يعتمد على السياق » [4] فالبناء النصي السليم ، هو صورة أخرى للنصية، وعبر عن ذلك آن روبول وجاك موشلار في قولهما:" يمكن للخطاب أيضا أن يكون منسجما أو غير منسجم تبعا لتقييده أوعدم تقييده بقواعد الخطاب "[5]

وأيا كان الأمر، فلا نجده يتحقق إلا بإدراج النص كبنية منسجمة نحويا ودلاليا ضمن سياقها التداولي، ومقاصد الأطراف الثلاثة (نص- منتج- مؤلف)، وتناصه عبر انفتاحه على إشارات خارجية وأطر معرفية ومرجعيات سياقية، لأن هذا التفاعل هو الذي يسمح لنا بمقاربة النص وفق هذه النظرية النصية، كون النصية نتاج تشكل مزدوج؛ نصي وتداولي، من حيث هي« بنية مجردة تتولد بها جميع ما نسمعه، ونطلق عليه لفظ " نص" ويكون ذلك برصد العناصر القارة في جميع النصوص المنجزة مهما كانت مقاماتها وتواريخها ومضامينها »[6]، و من أجل أن تكون لكل نص نصية يجب أن يعتمد على مجموعة من الوسائل اللغوية التي تخلق هذه النصية؛ بحيث تساهم هذه الوسائل في وحدته الشاملة.

وقد وضّحها كل من هاليداي وحسن (Halliday *Michael & Hasan Ruqaiya*)، *هي معايير وخصائص معينة، تميز النص بتوافرها فيه وتتنافى النصية إذا تنافت هذه* المعايير من المقطع اللغوي[7].

ولا تكون سيطرة كل من المتكلم والسامع والكاتب والقارئ على لغته كاملة إلا إذا استطاع أن يميز بين النص(texte) واللا.نص (non-texte) أو بين الوحدة الدلالية المتكاملة المتماسكة معنى وصياغة، وبين مجموعة عشوائية من الجمل لا يجمع بينها جامع ولا يربطها رابط، فالنص يتميز عن اللانص بخاصية النصية، التي تقوم على ركيزتين هما: التماسك الداخلي، وسياق الحال، الذي "يكبسل" فيه النص أو يتجلى فيه[8]؛ إنها" عدم إمكانية النص على الحسم(indécidable) و النص يتموقع عند السطح البيني القائم بين المرئي/اللامرئي، و الداخل / الخارج، و الحضور/الغياب والنص/السياق، فالنص هو ما لا يمكن حسمه، و لا يقع النص على أي جانب من جوانب هذه الثنائيات، و لا يمكن وقوع حسم على أي جانب؛ فعدم إمكانية النص على الحسم هي نصية النص"[9]، والتي من خلالها يؤسس نص ما هويته؛ كونها مبدأ يحقق شمولية النص ووحدته النموذجية، ويبحث في العلاقات التي تربط أجزاءه.

وقد دفع البحث في هذه الجوانب غير اللغوية إلى جوار الجوانب اللغوية بجهود اللغويين إلى إيجاد صيغة ملائمة تحقق التوازن بينهما، ولم يكن ذلك إلا للتأكيد على أن نماذج النص ومعايير نصيته لم تنشأ من فراغ، أو أنها مستقلة عن نماذج الجملة، بل إن مكونات نماذج الجملة لا تزال تشكل أجزاء جوهرية في نماذج النص، وينعكس ذلك

بوضوح في محاولات كل من جوليش (E. Gulich) ورابيليه (W. Riblé) توضيح نماذج علماء لسانيات النص المعروفين ونقدها، إلى جانب توضيح الفروض الاتصالية ووضع نموذج خاص، وقد أشارا إلى أن معظم الاتجاهات اللغوية السابقة قد قامت على نماذج نصية محددة، فاقترحا نموذجا للاتصال اللغوي، انطلاقا من أن الكلام فعل أو نشاط محدد القصد؛ ومن ثم فإن اللغة متضمنة في محيط يحدده الموقف،أو لا يحدده، أي في مواقف الاتصال (.KommunitionsSituationen)[10].

أما بتوفي(Petôfi) فقد قدم محاولات لا تقل عن المحاولات السابقة جدية وثراء وعلى الرغم من أنه قد استقى مكونات نماذجه من المعين ذاته الذي اغترف منه معظم المنظرين للنصية ومعاييرها، إلا أن محاولاته لها سمات خاصة، فهي مستقاة من المنطق والنحو التحويلي ومكونات أخرى دلالية وتداولية، حاول "بتوفي" فيها التفرقة بين مكونات سياقية داخل النص، وبين مكونات سياقية خارج النص، أي دلالية–تداولية؛ فبينما أطلق على الأولى "بنية النص" عدت الثانية "بنية العالم" وقد ربط كلا منهما في نظريات جامعة "بنية النص وبنية العالم" المعروفة بهذا المختصر(Te Swe ST) ، ويلاحظ فيها ذلك التوازن بين بنية إبداعية وبنية واقعية، وبين شكل النص ومعناه، وتلك العلاقات الممتدة داخل النص وتلك المعاني الإحالية له، أما المكونات المهمة في نموذج النص الذي انتهى إليه بتوفي فهي[11]:

أ- المعجم، الذي ينبغي أن يشتمل على معجم أساس محوري Kernlexikon ذي معان أساسية أولية، و معجم إضافي يضم المعاني الإضافية.

ب- نحو النص، الذي يتكون من قواعد تشكيل توليدية (لإنتاج صورة التمثيل غير الأفقية للنص) و قواعد تحويل (Text—Omega) لإنشاء تحقيق أفقي للنص (سطح النص).

ج- التمثيل التوسعي- الدلالي، الذي ينبغي أن يتبع من تمثيل امتداد النص والسياق، في كل عالم من العوالم الممكنة، أي يربط بين منطوقات النص بنماذج غير لغوية.

لتكون معايير النصية متمركزة جميعا حول العلاقات بين العناصر في مستوى معين، لفهم محتوى النص واسترجاعه للحفاظ على كل ما يلحظه المرء ويختزنه ويسترجعه ضمن نمط مستمر [12]؛ فنصية النص هي شرط للنص وممارسته. وكما يقول دريسلر: " النصية نشاط حل القضايا" "[13]، لا تنتج عن استعمال اللغة ولكنها نشاط ضروري يخضع

لقيود ذات نظام إدراكي تواصلي في جوهرها؛ فما يوحد حقيقة كل شيء هو علاقات التأسيس، حيث أن حقيقة العلاقات بين الأجزاء و نوعها هما ما يحدد الكل و يعطيه شكلا مميزا وخصائص مميزة.

ومن المؤكد أن ليس كل النصوص تعرض وتمارس الأنماط النصية جميعها، فبعضها يحقق هيمنة فيما تشغل الأخرى منزلة ثانوية في نصوص محددة ويمكن لنصيات معينة أن تميز وتوصف بصرف النظر عن النصوص، لكنها تحقق ممارستها و وظيفتها بنموذج نصوص معينة، كما أن انسجام نص ما مرتبط بصفة كبيرة بنوع النص؛ لأن كل متتالية جملية، تظهر منسجمة إذا نسبناها إلى نوع معين من النصوص على أن تصبح غير منسجمة أو تقدم مظهرا مختلفا من الانسجام إذ نسبناها إلى نوع آخر من النصوص[14].

أما النموذج الذي اقترحه دي بوجراند(Beau grand) و دريسلر(Dressler) سنة(1981)، اللذان عُنيا فيه بالقوة الكامنة في مستويات محددة داخل النظام اللغوي ونظام النص، خصوصا،هو النموذج الأقوى، من حيث المرتكزات والرؤى، لأن النص عندهما يمتلك سبع خصائص نوعية والتي أطلق عليها النصية(Textuality) والأخرى القصدية (أي يمتلك مخطط الطرح) والمقبولية، يمتلك بعض استعمالات التأثير والموقفية (قيمة السياق) والمعلوماتية (درجة المعلومات الجديدة في النص) و التناص علاقة غيره من النصوص "[15]؛ فانصبت أبحاثهما على كيفية تحقق هذه المعايير وعناصر الكفاءة في الأداء اللغوي، لتأثرهما بمراحل إنتاج النص في البلاغة القديمة ومراحل التخطيط ووضع الهدف و تكوين الفكرة (إيجاد الأفكار/ ضم الأفكار) وتطورها (عناصر المعرفة) والتعبير عنها وتركيبها النحوي/ تأليفها في أشكال من التبعية النحوية والتحويل إلى الأفقية.

وعليه " ينظر للنص اللغوي بوصفه نصا في موقف أو حدثا اتصاليا أو شبكة من العلاقات الناتجة من تضافر نظمه بمستوياتها المختلفة، وتكون المهمة التي يطمح إلى تحقيقها أو إنجازها هي مناقشة النص في سياق الإبلاغ"[16] من حيث إنتاجه، واستراتيجيات الاستقبال وكل العوامل الأدبية والاجتماعية والنفسية، التي تؤثر في النص أيا كانت صفته: جملة أو فقرة أو ملفوظا أو رسالة أو حدثا أو أسلوبا أو غير ذلك من المصطلحات التي تفاعلت معه، وتزاحمت، ففسر بها وفسرت به، في حقل الدراسات اللسانية، ومناهج البحث فيها؛ ذلك لأن النصية تؤسس نصا بوصفه نصا بطريقة معينة، ومعرفة من نوع معين، من جهة، ولأنها(النصية) ينبغي أن تعتمد على مجموعة من الوسائل اللغوية

المساهمة في وحدة النص، من جهة أخرى، لذلك تحاول لسانيات النص تقديم أشكال الاطراد وصور الانتظام، التي تنتج عن الاستخدام الاتصالي، وأن يعالج أشكالا نصية متباينة في سياقات تفاعل اجتماعي مختلفة من زوايا عدة"[17]، كون النص قطعة ذات دلالة وذات وظيفة، أي قطعة مثمرة من الكلام في سياق، لتتوزع معايير النصية على ثلاثة جوانب أساسية هي:

- بناء النص وتنظيمه.
- دلالة النص ومرجعياته.
- بلاغة النص وتداوليته .

لنحاول بعد ذلك، بحث النصية ومعاييرها في كتاب المثل السائر لابن الأثير .

ثانيا. المعايير النصية في كتاب المثل السائر لابن الأثير:

حاول البلاغيون القدامى وضع الأسس والمعايير لهذه الصياغة، سواء على المستوى الشعري أم النثري فألفوا في ذلك كثيرا من الكتب وأفردت له الفصول والأبواب، ووضعت الرسائل ومنها: (رسالة عبد الحميد الكاتب (ت 132هـ)، ورسالة بشر بن المعتمر (ت 210هـ)، ووصية أبي تمام (ت 228هـ) للبحتري في صناعة الشعر...) وغير ذلك من الوصايا والرسائل التي اهتمت بوضع قوانين وأسس صناعة الكلام، شعرا ونثرا، أما الكتب التي تناولت هذه القضايا بوجوه مختلفة فهي كثيرة، يأتي على رأسها "البيان والتبيين" والحيوان للجاحظ (ت 255هـ)، والذي شكل بمؤلفاته فترة مخاض لاهتمامات عربية، من أجل ما سمي صناعة الكلام، أو "فن التأليف" والذي يمكن اعتباره باكورة القضايا اللسانية النصية في هذا الموروث، أين تعرض الجاحظ إلى قضايا لسانية تعلقت بالكلام، أي النص تعلقا شديدا، مثل قضية اللفظ والمعنى، والإيجاز، والسبك (أي الاتساق)، يقول: "هذا مع جودة الطبع وجودة السبك والحذق بالصنعة"[18]، إذ جعل لكل صناعة ألفاظها، التي ستنظم بشكل خاص مقاما معينا، وحالا خاصة، تعرف بفضل الكلام، والمتكلم به، ليكون الجاحظ بكتابيه(الحيوان/والبيان والتبيين) صاحب فضل في مخاض لسانيات نص عربية أصيلة، أو بالأحرى نراها كذلك، فكانا زادا لمن كتب بعده، ونخص بالذكر ابن الأثير.

وانطلاقا من قول مصطفى ناصف: "علينا أن نجعل للنص احتراما أوفى، علينا أن نساعده على الحديث وبعبارة أخرى علينا أن نجرب حرمة النص، من حيث هو آخر

كامل لا مجرد موضوع نجرب فيه ذواتنا وأهواءنا"[19]؛ سنحاول استنطاق بعض النصوص لواحد من الذين أبدعوا في الكلام عن فن التأليف وفن صناعة الكلام وهو أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير الموصلي، المتوفى عام 637 هـ.

النص الأول يقول ابن الأثير:" اعلم أن للكتابة شرائط وأركانا... أن يكون **الدعاء المودع في صدر الكتاب مشتقا من المعنى الذي بني عليه الكتاب**... وكثيرا ما تجده في مكاتباتي التي أنشأتها؛ فإني قصدته فيها وتوخيته... أن يكون**خروج الكاتب من معنى إلى معنى برابطة**؛ لتكون رقاب المعاني آخذة بعضها ببعض، ولا تكون مقتضبة...أن تكون ألفاظ الكتاب غير مخلولقة بكثرة الاستعمال..أن تكون الألفاظ المستعملة **مسبوكة سبكا غريبا**، يظن السامع أنّها غير ما في أيدي الناس، وهي **مما في أيدي الناس**، وهناك معترك الفصاحة التي تظهر فيه الخواطر براعتها، والأقلام شجاعتها"[20]...إلى قوله:" وأن لا يخلو الكتاب من معنى من معاني القرآن الكريم والأخبار النبوية"[21].

لعل هذا النص يصرخ حداثة من خلال عبارات عديدة تضمنها وتشير بطريقة أو بأخرى إلى النص الأنموذج أو النظرية النصية، إذ يقول:"الدعاء المودع في صدر الكتاب مشتقا من المعنى الذي بني عليه الكتاب"- و"خروج الكاتب من معنى إلى معنى برابطة"- و"مسبوكة سبكا غريبا" -و"مما في أيدي الناس"؛ إذ تثير هذه العبارات وغيرها قضايا لسانية عديدة، لعل مجملها مرتبط بالنص، أي بلسانيات النص وهي القصد في العبارة الأولى،و التناص في الثانية، والاتساق في الثالثة،وكأنّ ابن الأثير قد جعل من النص تفاعلا معرفيا قبل أن يكون بنية لغوية، تندمج فيه دينامية الاستجابة المرئية في طبقاتها السطحية ضمن ما تحتويه من الموجود الملموس، مع روح التأمل الداخلي، قصد إدراك مخيلاته المخفية، ليتقاطع -بذلك- مع محاولات لسانية نصية معاصرة حاولت استجلاب أسرار النص، وكشف مستوى التناغم فيه، مع ورود منعرجات احتمالية في فهمه وتأويله، تتفق فيه الذات مع الآخر وفق مبادئ مشتركة تمثلها البراعة، بمصطلح ابن الأثير؛ لأن الكلمات تكتسب سماتها من موقعها في سياقها اللغوي ومقاصدها مستثمرة ما يمكن أن يتميز به الكلام من خصائص محدودة مرتبة ارتباطا وثيقا بالمؤشرات السياقية والاتساقية، فلكل كلمة مجال من التأثيرات الممكنة يختلف طبقا للسيـــاق والقصد والكفاءة اللغوية، وأخيرا لحسن النظم والترتيب في إخراج ذلك النص، وكلها أمور تعود إلى ما أسمته

لسانيات النص بالبنية الكلية أو موضوع الخطاب؛ باعتبارها الموضوع الذي " يؤثر في تشكيل البنية على نحو معين، فهو الذي يستدعي استخدام كلمات ذات طابع خاص، وخلق مجاورات ومحاورات بين الألفاظ وتشكيل الموسيقى والصور"[22].

النص الثاني:ويقول أيضا:"اعلم أنه يحتاج صاحب هذه الصناعة في تأليفه إلى ثلاثة أشياء: الأول منها **اختيار الألفاظ المفردة**، وحكم ذلك حكم **اللآلئ المبددة**؛ فإنها تتخير وتنتقى قبل النظم؛ االثاني**نظم كل كلمة مع أختها المشاكلة لها**، لئلا يجيء الكلام قلقا نافرا عن مواضعه، وحكم ذلك حكم **العقد المنظوم** في اقتران كل لؤلؤة منه بأختها المشاكلة لها. الثالث **الغرض المقصود** من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه، وحكم ذلك حكم الموضع الذي يوضع فيه العقد المنظوم، فتارة يجعل إكليلا على الرأس، وتارة يجعل قلادة في العنق، وتارة يجعل شنقا في الأذن، ولكل موضع من هذه المواضع هيئة من الحسن تخصه....وهي أمور لا يدركها إلا من دقّ فهمه وجلّ نظره"[23].

يتظاهر لنا في هذا المقام أن الناظم مهندس بنّاء، كما صورته البلاغة العربية في نصوص نفيسة أخرى، وابن الأثير في هذا النص النفيس والبديع قد قام بتلخيص نظريته حول صناعة الكلام، أي ما يعرف في لسانيات النص بنظرية إنتاج النص- في رص هندسي ورصف للبنيات النصية أفقيا وعموديا مع مراعاة انسجام الأجزاء و تناسقها واتساقها لتحقيق البنية في الصورة الهندسية المرجوة، التي اختارها الكاتب، طبقا للصورة المثالية، التي ارتسمت في ذهنه قبل الشروع في الكلام[24]؛ ذلك لأن المفردات اللغوية لا تمثل إلا ناحية جامدة هامدة من تلك اللغة، فإذا نظمت و رتبت ذلك الترتيب المعين، سرت فيها الحياة، و عبرت عن مكنون الفكر، وما يدور في الأذهان. وليست اللغة -في حقيقة أمرها- إلا نظاما من الكلمات التي ارتبط بعضها ببعض ارتباطا وثيقا، تحتمه قوانين معينة للغة[25]، وبه تتحقق مطابقة الكلام لسياقه، من حيث إفادته المعاني الثواني، والتي هي الأغراض المقصودة للمتكلم، ما يجعل كلامه مشتملا على تلك اللطائف والخصوصيات التي بها يطابق سياق الحال، وهي قضايا تمتد إلى مجالات متنوعة غيرها، مثل: علم الاتصال، علم الاجتماع، نظرية التعامل والتداول، علم النفعية أو المنهج العملي، أوالمناهج التجريبية في البحث الاجتماعي"[26]، في اللسانيات المعاصرة، التي تخضع لها كل ما تحتاجه في سبيل تحقيق الغاية، ألا وهي فهم النص والوقوف على معانيه ومقاصده.

ونشير في هذا الصدد–على سبيل المثال– إلى ما ذهب إليه دافيد روملهارت (d. romlhart) بعدّ: " عملية الاستيعاب مطابقة لعملية انتخاب المخططات التصويرية والتحقق منها في محاولة تفسير الموقف أو النص الذي يراد فهمه؛ لأن انتخاب المخططاتوالتحقق منها، يساهمان في الاستيعاب دون أن يكونا مطابقين له. ويجد المرء مصالحة مطردة بين المعرفة التي يعرضها النص وبين أنماط المعرفة التنظيمية المختزنة عند الشخص الذي يفهم النص وطبعه ومزاجه"[27]، و للمكون النصي–هنا– دور في تركيب التأليف/ النص؛ إذ يتكون من موضوع ومحمول، واختيار العنصر الموسوم بوظيفة تماسكيةcohésive، تلفت انتباه العنصر الذي وضع في غير موضعه، و علاقته بالعناصر الأخرى، كما تتصل بتقسيم عنصري القضية إلى معلوم و هو ما يفترض المتكلم أن السامع يعرفه، وجديد، وهو ما يريد المتكلم الإخبار عنه أو يفترض أن السامع لا يعرفه[28].

إذ تتحكم في إنتاج النص عدة عمليات لغوية و نفسية و اجتماعية و معرفية تشكل من الأجزاء وحدة منسجمة قائمة على قواعد تركيبة و دلالية تداولية معا، و يؤدي الفصل بين هذه القواعد أو الاكتفاء بقسم منها إلى خلل حتمي في التفسير، لأن عمليات فهمها و تفسيرها لا تقل عن عمليات إنتاجها، و أن الثوابت المتمثلة في البناء النصي تختلف عن المتغيرات المتمثلة في أشكال الفهم المتباينة، كون النص بنية دلالية تنتجها ذات تفاعلت وفعّلت، وفعلت.

النص الثالث: يقول:"اعلم أن صناعة تأليف الكلام من المنظوم والمنثور تفتقر إلى آلات كثيرة، وقد قيل ينبغي للكاتب أن يتعلق بكل علم، حتى قيل: كل ذي علم يسوغ له أن ينسب نفسه إليه فيقول: فلان النحوي، وفلان الفقيه، وفلان المتكلم، ولا يسوغ له أن ينسب نفسه إلى الكتابة فيقول فلان الكاتب، وذلك لما يفتقر إليه من الخوض في كل فن، وملأ هذا كله الطبع، فانظر أيها المتأمل إلى هذا التفاوت في الصناعة الواحدة من الكلام المنثور ومن أجل ذلك قيل: شيئان لا نهاية لهما: البيان والجمال"[29]؛ فصناعة الكلام/ الكتابة في مواضع أخرى صناعة لم ترتبط بأي علم ولا عالم، ما تحتاجه هو الآلات الكثيرة والتي يتحكم فيها الطبع إلى غاية البيان والجمال، أي الإثارة والتأثير لتتحقق قوة الناص وشعرية النص، ولعل في سبيل كل ذلك يضع ابن الأثير ثمانية آلات كشرط لتحقق فن الكتابة، أو "صناعة الكلام"، وهي[30]:

1. معرفة علم العربية من النحو والتصريف.
2. معرفة ما يحتاج إليه من اللغة (المتداول المألوف).
3. معرفة أمثال العرب وأيامهم.
4. الاطلاع على تأليف من تقدمه من أرباب الصناعة المنظومة والمنثورة.
5. معرفة الأحكام السلطانية (الإمامة، الإمارة، القضاء).
6. حفظ القرآن الكريم وإدراجه في مطاوي الكلام.
7. حفظ ما يحتاج إليه من الأخبار (الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم.
8. معرفة علم العروض والقوافي (أي ميزان الشعر).

لقد أوجب ابن الأثير على ناظم الكلام أن يمعن النظر في علوم البلاغة، حتى يستطيع معرفة محاسن اللفظ مفردا ومركبا، ويحيط بما يتفرع من أصول النقد الذي منه البديع الذي هو رقوم الكلام، ونتائج مقدمات الإفهام، وليجعل عمدته على كتاب الله العزيز، وليميز إعجازه أدق تمييز، فإنه البحر الذي لا تفنى عجائبه ولا يظمأ فيه راكبه، منه استخرجت درر المحاسن، واستنبطت عيون المعاني، وعرف كنه البلاغة وتحقق سر الفصاحة، ولما خصه الله به من جودة سبك وحسن الرصف وبراعة التراكيب ولطف الإيجاز، وعذوبة الألفاظ، وجزالتها وسلاسة المعاني ورشاقتها[31]، ورصف الجمل والتراكيب،كأنها جملة واحدة تتآخذ أجزاءها و تتماسك، حيث اعتمدت على قواعد النظام اللغوي لاسترجاع الاتصال اللغوي، والقائم تماسكها على معرفة شعرية النص المبنية على الوسائل اللغوية المستعملة والمتميزة، متبعة مبدأ التعاون والتزاوج بين علم اللغة والدراسات الأدبية من أجل صياغة النص الشعري، ومرتبطة بقضايا النص والخطاب[32].

وأوجب عليه الدراية النحوية؛ ذلك أن وظيفة النحو هي استخراج مبادئ اللغة ونظمها، استنادا إلى الاستعمال المشترك، وغايته القصوى حماية اللغة من الفساد، والحرص على أن تواصل أداء وظيفتها الأصلية التي هي الإبلاغ ووسيلته في ذلك ضبط المعايير التي تفصل بين الخطأ والصواب، ومن ثمة تساعد هذه المبادئ على تفسير البناء اللغوي تفسيرا يقوم على توضيح العلاقات وكشف الترابط بين أجزاء الكتابة (النص)، في قوله: " أما علم النحو فإنه في علم البيان من المنظوم والمنثور بمنزلة أبجد في تعليم الخط، وهو أول ما ينبغي إتقان معرفته لكل أحد ينطق باللسان العربي."[33].

أي أنّ الدراسة النحوية للظواهر اللغوية عند ابن الأثير تقوم على المقارنة بين "علم البيان" و"علم النحو"، وفي ذلك دعوة صارمة إلى تزاوج بين "القواعد النحوية البلاغية" والإحساس الفني الجمالي، لأن النص ليس نظاما من الوحدات اللغوية التي تستهدف الفهم فحسب، وإنما هو نظام ذو وظيفة تأثيرية، وبهذا التزاوج وآلياته، نتميز جيد الكلام من رديئه، كون العلاقات التي تربط بين مفردات الكلام من ناحية، وبنيتها البيئية الاجتماعية النفسية، من ناحية ثانية، قد تشكل سياقا جديدا مغايرا، يعود برمته إلى المتكلم، والنسق والنص والقصد والقارئ، ليقرأ قول ابن الأثير عن فن تأليف الكلام برؤية لسانية نصية كالتالي:

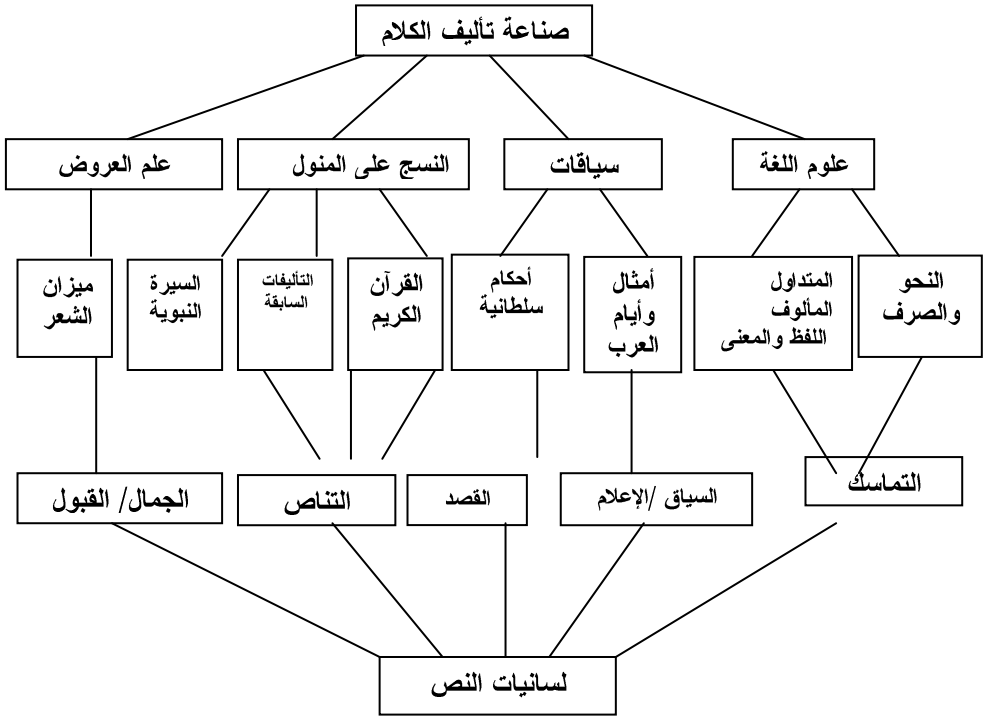

يفتح ابن الأثير نافذة كبرى على دراسة النص، وفق هذه الآليات، التي وضعت "لفن الكتابة"، ويشرع بأحكام الكلام، مسبقا لما سمي في الدرس المعاصر "لسانيات النص". كما أن المتأمل في قضايا النحو والبلاغة لدى العلماء، وفي إطار حديثهم عن التماسك الحاصل في تأليف الكلام، أو صناعة الكلام أو الصناعة الشعرية، وربطها بالرغبة وسياق الحال، تبين رؤية متكاملة واضحة المعالم والحدود، تحكمت في تحليلاتهم ومناقشاتهم

ووصاياهم في قضايا الكلام والنص–خاصة القرآني– وقد استطاع العلماء من خلالها أن يتجاوزوا ذلك الإطار الضيق الذي لم يتعد تحليل الجملة أو مجموعة الجمل الذي فرضته القواعد المعيارية التعليمية على مستوى النحو أو البلاغة؛ ذلك أن البلاغة ليست أمرا مستقلا عن النحو، وأن البلاغة تساعد اللغة على أداء وظيفتها البلاغية، وهي فكرة وجدت صداها في لسانيات النص، "لأن كل عبارة متلفظ بها ينبغي ألا توصف فقط من جهة تركيبها الداخلي والمعنى المحدد لها، بل ينبغي أن ينظر إليها كذلك من جهة الفعل التام للإنجاز المؤدي إلى إنتاج تلك العبارة"[34].

ما يعني أن البلاغة العربية–في بحث صناعة النص وتفسيره، وبخاصة ما تحسسناه ووقفنا عنده في نصوص ابن الأثير– قد اشترطت على الصانع– في تمام وظيفته– إن أراد عدولا وخروجا عن معايير اللغة، أن يشير إلى ذلك بقرينة تمنع من فهم التركيب على الحقيقة، وتوجه الفكر إلى المعنى المجازي الذي أراده مع عدم الغلو والمبالغة في ذلك إذ عدوها عيبا لابد من الابتعاد عنه. كما اشترطت على القارئ، إذا أراد السفر في رحلة فهم "غير ظاهر النص" ، أن يستند –في تأويله– إلى حجة تبرر فهمه ذاك، وكلا الطرفين مجبر على احترام قواعد اللغة، والعرف اللغوي، وهي أمور وقضايا تأكدت في اللسانيات الحديثة وتمت معالجتها برؤى جديدة، تحت مسمى النصية ومعاييرها، ليكون– ذلك– إسهاما عربيا بلاغيا تراثيا أصيلا، لا يجب أن نتجاوزه ولا نستطيع، بل علينا إبراز عبقريته ما أمكن، وإظهار ما فيه من شمولية وموسوعية.

وصفوة القول، أنّ علماء العربية قد تنبهوا لما اشتغلوا على النص القرآني والنص الشعري ونص الحديث النبوي الشريف، إلى العديد من قضايا لسانيات النص وما يتميز به من ترابط أجزائه، وجودة التحامه وسبكه، وحسن صياغته، وأسلوبه الإيحائي، الذي يتطلب العودة إلى السياق من أجل فهمه، وتلاؤم دواله وانسجامها، ودقتها في أداء مقاصدها، حقيقة ومجازا، وانفتاحه على كل الأمكنة والأزمنة، وعذوبة الموسيقى وحسن الجرس الموسيقي وترتيب الفواصل، فكثرت حوله الشروح والتفاسير، وتعددت القراءات والرؤى بتعدد وجهات الناظرين، انطلاقا من قناعاتهم العلمية وميولاتهم ، ومنطلقاتهم ومرجعياتهم النظرية والفكرية والثقافية لفهم النص وتأويله.

الإحالات:

[1]– ناظم عودة خضر، الأصول المعرفية لنظرية التلقي، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، 1997، ص64.

[2]– فيهيفيجروهاين منه، مدخل إلى علم اللغة النصي، ترجمة فالح ابن شبيب العجمي، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، الكتاب رقم 115، 1419هـ. ص168.

[3]– سعيد حسن بحيرى، علم لغة النص–مفاهيم واتجاهات، الشركة المصرية العالمية للنشر الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، القاهرة، الطبعة الأولى، 1997م، ص 102، 103.

[4]– نيلس أريك انكفيست، الأسلوبية اللسانية، ترجمة أحمد مؤمن معهد اللغات الأجنبية، مطبوعات منتوري، قسنطينة، فيفري 2001، ص 113.

[5]– آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم (علم جديد في التواصل) ترجمة: د.سيف الدين دغفوس، ود. محمد الشيباني، المنظمة العربية للترجمة ، لبنان، دار الطليعة للطباعة و النشر، ص 205.

[6]– الأزهر الزناد، نسيج النص،المركز الثقافي، المغرب،1987، ص 18. وينظر: محمد خطابي، لسانيات النص (مدخل إلى انسجام الخطاب) ،المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، الطبعة الأولى ،1991 ، ص 12–13.

[7]–Halliday & Hassan, cohesion in English, Longman, London 1976.p1-2.

[8]– محمود أحمد نحلة، علم اللغة النظامي(مدخل إلى النظرية اللغوية عند هاليداي)، ملتقى الفكر، الإسكندرية، 1998. ص 154.

[9]– هيوسلفرمان، نصيات بين الهيرمنيوطيقا و التفكيكية، ترجمة: حسن ناظم وعلي حاكم صالح، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2002، ص 134.

[10]– سعيد حسن البحيري, علم لغة النص, ص 92–93.

[11]– المرجع نفسه، ص95–97

[12]– إلهام أبو غزالة وعلي خليل حمد، مدخل إلى علم لغة النص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط2، 1999، ص 258.

[13] – سعيد حسين بحيرى, المرجع نفسه، ص 102.

[14] - Maingeneaux , L'analyse du de discours (introduction aux lecteurs de l'archive), Hachatte, paris, 1991.p,210.

[15]- Katie walls , a dictionary of stylistics Pearson education, Edinburgh ate , Harlan, England, 2001. ,p390.

et; -Shirley carter Thomas, La cohérence textuelle (pour une nouvelle pédagogie de l'écrit), langue &parole, L'harmattan, Paris, France, 2000,.p 18

[16]– سعيد حسن بحيرى، علم لغة النص، ص 75.

[17] – سعيد حسين بحيرى، علم لغة النص، ص 99–100.

[18]– الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت. ط3، 1969،ج2، ص27.وينظر: المرجع نفسه، ج3، ص 368، 367.

[19]– مصطفى ناصف، اللغة و التفسير و التأويل، ص 176. وينظر: عزة شبل محمد، علم لغة النص(النظرية والتطبيق)، تقديم: سليمان العطّار، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 1428هـ/2007م، ص 28-29.

[20]– ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق:محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، 1939م/1358هـ، ج1، ص72-73.

[21]– ابن الأثير، المثل السائر ،ج1، ص75.

[22]– ينظر: كلاوس برينكر، التحليل اللغوي للنص، مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج، ترجمة: سعيد حسن بحيرى، مؤسسة المختار، القاهرة، الطبعة الأولى، 2005، ص17-19.

[23]– ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص142. وينظر: فيهيفيجر و هاين منه، مدخل إلى علم اللغة النصي، ص 126

[24]– ينظر: محمد الصغير بناني، المدارس اللسانية، ص 35، 39

[25]– إبراهيم أنيس، من أسرار اللغة، ص 295. ينظر: محمود السعران، علم اللغة، مقدمة للقارئ العربي، دار النهضة، بيروت، ص226 وما بعدها.

- [26].voir/Jean- Louis chiss/jacques Filliolet et Dominique Maingueneau , introduction a la Linguistique Française,Hachette,paris,2001,tome 1.p 48.

[27]– – إلهام أبو غزالة, مدخل إلى علم لغة النص, ص256.

[28]– – محمود أحمد نحلة, علم اللغة النظامي, مدخل إلى النظرية اللغوية عند هاليداي, ملتقى الفكر الإسكندرية,1998, ص147.

[29]– ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص7، 8 .

[30]– ينظر: ابن الأثير، نفسه، ج1، ص 09، 10.

[31]– ابن الأثير، نفسه، ج1، ص12.

[32]–voir; Mangonneaux, L'analyse du discours, p 48.

[33]– ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص10.

[34] – فان ديك، النص والسياق (استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي)، ترجمة : عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، المغرب، 2000، ص18. وفان ديك، النص بنياته ووظائفه، نظرية الأدب في القرن العشرين، ترجمة: محمد العمري، إفريقيا الشرق ، 1996، ص 51، 52. وينظر: سعيد حسن بحيرى، علم لغة النص، ص 220، 221.